على تخوم العالمين

(١)

الصحراء[١]

بيتى على حدود الأبد – لو أنه كان للأبد حدود ! – وليس هو ببيتى وإن كنت ساكنه ، وما أعرف لى شبر أرض فى كل هذه الكرة ، ولقد كانت لى قصور – ولكن فى الآخرة !! – بعت بعضها والبعض مرهون بحينه من الضياع ، ووقفت معلقًا بين الحياتين ، كما سكنت على تخوم العالمين !

* * *

ولغيرى الأحراز والأملاك ، ولكنّ من الصعب أن يتصور المرء أن « أرضًا » ملكه – ملكه كيف ؟ ؟ يستطيع أن يزرعها إذا شاء ، أو يبنى فوقها إذا أحب ، ولكن هذا ليس إلا نوعًا من الارتفاق . فأما أن يفهم العقل على وجه مقبول جلى أن هذه القطعة من الأرض – هذه القشرة المنتشرة على كتلة العالم ، هذه الطبقة المتصلة بطبقات دونها – ملكه ! فمما لا أصدقه ولا أدركه !! وتصور أن جبلاً من الجبال ملكك ؟ ! جبلاً أشم شامخًا تتجاوب فى مخارمه الأصداء ، وتصارع كتلته الرازحة الرياح والأنواء – ملكك ؟ لأصدق من ذلك وأقربُ إلى الصواب فيه أن تقول إنك أنت ملكه !

* * *

(١) عند هذه الصحراء تفترق مساكن الأحياء عن مقابر الموتى . وليس فى الصحراء مقابر .

وإلى يمينى الصحراء ، وإلى يسارى .. الصحراء ، وفى كل ناحية يرتمى فى فجاجها الطرف .. الصحراء ، وفى الصدر .. لا أدرى سوى أنه قواء !!

وفى كل يوم أهبط إلى ساحل الحياة وأتريث على حفافيها برهةً أشهد عبابها المتدفق ينهزم على الرمال ويتكسر على الحصى والصخور ويقذف بأشلاء غرقاه ثم يرتد ليؤوب بسواهم ، مطويّين فى أكفان أثباجه ، محمولين على نعوش من مزبدّ أمواجه . وبعد أن أقضى حق العين من التأمل والشهود ، كأنى موكل بعدّ الموتى وحساب البيود ، أكر راجعًا إلى صحراواتى !

والقمر يضيئها كما يضيئكم أبناء الحياة ! ويبسط على رمالها الصفراء نوره الفضى اللين اللألاء ، ويضربها سارى الطل ضربة الروضة الفيحاء ، وتوامض بلوراتها الأنجم الزهراء ، وتطلع عليها الشمس وتغيب كل صباح ومساء ، فما تميز « العناية » بين ممرعة وجدباء ، وكل شيء عند الطبيعة ككل شيء سواء بسواء ، ولو خلتْ منكم الدنيا لما أحست فقدكم لا الأرضُ ولا السماء !

* * *

ويزحف الليل فأبرز إلى الصحراء ، فيلفنى الظلام فى شملته ، وتلطمنى الريح وتدفعنى وترد من خطاى كأنما تريد لتصدنى عن هولها ، وأعود كبعض ذراتها لا تراها العين ، ولا يحسها ولا يحفل بها كون ، فليت من تخدعهم الحياة وتنسيهم ضآلة أقدارهم يخرجون ليلة إلى الصحراء !

وماذا يعرف عن الليل من يسكن المدن ويعيش بين أضوائها الناسخة للظلمة ، المضيعة لوقعها فى النفس ؟ ؟ ها هنا الليل الطاغى العاتى يا من ألفتم نعومة الحياة وطراوة العيش ! فوقك السماء لا تراها ولكن تحس أنها دنت منك ، وأسفّت إليك ، فلو رفعت يداك لدفعتها ، وتحتك الرمل

تغوص فيه قدمك وتريد أن تقتلعها منه ويأبى أن يدعها لك كأنما شوّقه طولُ الجدب إلى غرسٍ ولو كان إنسانًا !! ومن الريح فى أذنيك الرعدُ مرسلاً دافقًا – هل رأيت (الدوّامة) فى الماء ؟ إليها تنحدر كل موجة ، وصوبها يجرى كل طاف وفيها يغرق كل محمول على متن التيار – كذلك تكون أذناك للريح ! فيهما ينصب صفيرها ، وإليهما يجرى مُزَمزمها . كأنما آضتا قطبًا شماليًا يجذب الرياح من الجهات الأربع ! فيالفرحة الريح بطارق الصحراء !!

* * *

ويتجرد الإنسان فيها من اسمه ، ولا يعود فلانًا بن فلان – كائنًا من كان هذان الفلانان – بل بعضها وأهون ما فيها ، وتسقط عن نفسه – كأوراق الشجر الذاوية – عواطف الغضب والألم والمراح والأمل واليأس والندم والأسف والطماح ، وتسكن الشهوات الجامحة وتختفى النزعات المقلقة الطائشة ولا يبقى سوى طمأنينة وادعة، كصفحة الغدير المصقولة إذ يمسحها النسيم الوانى ، حتى والريح تعصف والظلمة مسحنككة .

ويحدّث نفسه إذا شاء – بل هو لا يسعه إلا أن يحدثها – ولا ينكر صوته ولا يستغرب أو يلحظ أنه تغير وأنه صار أشبه شيء بالصدى واثبًا عن جوانب الغار .

ويغنيها فى الليلة القمراء ...

* * *

وقد تزاحف الناس ببناهم فما عمروا منها فيما أرى خرابًا ، ولا تحيفوا منها طرفًا أو ضيقوا لها رحابًا ، هى أبدٌ صغير ، وهل ينتقص من الأبد كر الأيام والشهور ؟ ؟

والمرء ينفض فوقها غبار الحياة ، وينضو عندها كل ثوب مستعار ، وينسى أنه سعى وفاز أو خاب ، وأن عليه أن يعود كرته إلى خوض قديم العباب .

ويا عجبًا لها ! أهبط إلى ساحل العيش كل يوم وأعود وبى حاجة أن أميط عن نفسى ما علق بها من الأوحال ، فأغشى الصحراء فأصفو من الأخلاط والأوشاب ، وأرجع ولم يعلق حتى بثوبى التراب ..

(٢)

صفحة سوداء من مذكراتى !

أنا الساعة فى خلوة بنفسى – لا سمير إلاَّ طيف الماضى – هذا أنيسى ، يعمر لى فجاج الصحراء ، ويكظها بالأشباح الجوفاء ، ويحيطنى بحاشية من الذكريات ليس لها انتهاء ، ويُطرفنى بأحاديث أيامى التى تقضت ، وأحلامى التى انتسخت ، وهماتى التى فترت ، وبساتين آمالى التى صوّحت ...

رقدتُ على الرمال وجعلت عينى قيد هذه السماء المجلوة التى لا تعرف فنَّ الإمطار ، وكان القمر طالعًا ولكنه باهتٌ كابى الضوء ، كالذكرى ، يغرى بالوجوم ولا يُشيع فى النفس حرارة ، وهفا فوقى عصيفير حط على صخرة ... هناك ! .. هناك حيث لم أكن أجلس وحدى ! .. وانطلق يغرد .

آه لو علمت عصيفيرى أن صوتك كان يكون أصفى ، وتغريدك أحلى وأشجى ... ولكنّ عينها لن تفتحَ على هذه السماء ، وسمعها لن يرده هذا الغناء ! ؟ .

* * *

والمرء فى خلوته يكون أقرب إلى الجنون إذا ذهبتَ تعتبر سلوكه ، كما يقول ماكسيم جوركى ، لأنه يرسل نفسه على سجيتها حين يأمن عيون الرقباء ، ويقول أو يفعل ما بدا له غير محتشم . وقد أذكرتنى كلمة جوركى أنى أحيانًا أجدنى أغنى ساخرًا من شخص لا وجود له إلاَّ فى وهمى ، أو أحك أنفى بأصبعى مكايدًا من أتخيل أنى أعابثه ، أو أخرج لسانى لصورتى فى المرآة !

وكأن العصفور أعدانى فرحت أغنى .. وما أنا بالمحتمل الصوت ولا هذا من عاداتى ، وإنّ فى طبعى لاحتشامًا ، كثيرًا ما ينغص علىّ متعى ولذاذاتى . غير انى لم ألتفت إلى صوتى ولا أحسبنى حتى سمعته ، وإنما هو ذهول عرانى فمضيت أرسل من الأصوات ما كان يطربنى حين يصافح أذنى كأنما أردت لأستدنى به نائيًا .. فخيل إلىّ أنى سامع وقع قدمين تدلفان نحوى ... ولكن الطيف مرّ بى ولم يتريث ، واشتمل عليه ظلام الليل كما طوى صاحبه ظلامُ الأبد !

* * *

وا أسفى عليكِ – ! – لا بل علىّ – لم يبق منك إلاَّ طيفٌ يعتاد ذاكرتى ! لا أثر على الرمال الخائنة التى كنا نمشى فوقها ونرقد عليها ، ونملأ أكفنا منها ، وندعُ ذراتها تتساقط خيوطًا من بين فروج أصابعنا ! ولقد نسيتكِ النجومُ التى كنت تحبينها وتشيرين إليها ببنانك وتعدينها ولم تستوحش خلو مكانك إلى جانبى تحت عيونها المتلاحمة ، – بل هى لم تذكرك حتى يقال نسيتك – والقمر الذى كنت تأنسين بطلعته وتخالسينه النظر من بين خصل شعرك الدجوجى المرخى على وجهك تحت ضوئه الفضى اللين – لا يزال يبتسم كالعهد به ابتسامة السخر والسهوم كأنه لم يفتقدك !

كلا ! ما من شيء فيما أرى يحس افتقادك كأنك لم تحيى وجه هذه الطبيعة الخامدة الحس ، الميتة المشاعر ، التى تروعنا وهى لا تحفلنا ، وتسبينا ولا تذكرنا . حتى أنا الباكى عليك تعرونى رعدة كلما تصورت ما يصنع البلى بك ! شفتاك الحساستان اللتان كانتا تستديران لتتلقيا قبلاتى ، ماذا صارتا الآن ؟ صديدًا سائلاً ! وعيناك ؟ أليستا الساعة كهفين بشعين أعالج أن أطرد من مخيلتى صورتهما ؟ وأنفك الأشم المنسجم لعله فى هذه اللحظة مرتع ديدان ومرعى حشرات ! وأناملك الغضة التى كانت تضاغط كفى عن أرقّ عاطفة وأحناها ؟ إيه ما أشنعها صورة وأهولها !! وماذا أنا الآن ؟ حى من الأحياء لا يدرى الناس أنى مت منذ سنين وإنى قبر متحرك كشمشون ملتون ، أو جثة لم تجد من يدفنها أو صورة باهتة لما كنتهُ فى حياتى ، وما أعد فيمن لا يزالون على قيد الحياة إلاَّ لأنى ينقصنى أن تُكتب لى شهادة بالوفاة ! ولقد كنتُ كما يتوهمنى الناس الآن ، حيًّا تتدفق الدماء الحارة فى عروقى ، فلما تأملت مصائر الخلق ركدت الدماء قليلاً وابتردتْ ومات منى شيء ! ثم قضى ولداتا فأحسست دبيب الفناء ، وضحى ظلك فتساقطت أزهار الحياة بين يدىّ وذوت نوارات آمالى تحت عينى ، وإذا كفى ملأى بميت الزهر مما قطفت قدمًا ، فشاع فىّ الموت علوًا وسفلاً . !!

وإنى لأقضى أيامى على نحوٍ ما – أروح وأجيء وأكتب وأتكلم وأضحك وآكل وأشرب ، ولكنى لا أرجو ولا أغضب ، ولا أحزن ولا أطرب ، ولا أرهب ولا أرغب لأنى لست أحيا الآن !!

* * *

وإنى لغارق فى لجج هذه الخواطر وإذا بفتاة رودٍ تعدو إلىّ وتنادينى

باسمى ، فأفقت ورُددت إلى الدنيا ولكن كما يفيق المغشىّ عليه : يتلفت فى كل ناحية ويسأل أين هو ؟ ويعجب لنفسه ولمن حوله ، وبذهنه بعض الكلال ، وعلى عينيه كالغشاوة ، ثم اعتدلت فوق الرمل ونبهت حواسى ومداركى بجهد وقلت « من عسى تكونين يا فتاتى ؟ » .

قال : « لقد ذهبت أملأ جرتى من بيتكم هذا (وأشارت إليه وكان بحيث يُرى) كعادتى كل ليلة بعد أن تنقطع الرجل[1] ، ألم ترنى قبل الليلة ؟ » .

قلت نعم (ولكنى لم أذكرها) .

فمضت فى كلامها وهى تلهث وتلقى علىّ الأسئلة ولا تنتظر جوابها « إنى كل ليلة أتسلل إلى البيت وجرتى تحت ملاءتى وأدفع الباب برفق . لماذا لا توصد بابك ؟ ألا تخشى سارقًا ؟ ولكن لو كنت توصده لتعذر علىّ أحيانًا الدخول ولكنت أخجل أن أزعجكم كل ليلة من أجل جرة ماء ! وبعد أن أدخل وأضع جرتى فى الحوض أتركها تمتلئ على مهل وأرود الحديقة ، ولكنى والله لم أقطف منها شيئًا ، وإن كنت أحب ثمر الحناء ؟ وقد انتهرتنى ليلة وأنا أتمشى تحسبنى أريد أن أسرق ، فخفت وبكيت فى الطريق وقلت كيف يسىء الظن بى ؟ نعم كيف أسأت الظن بى ؟ » فقلت « لم أكن أعرفك يا فتاتى فلا تغضبى وخذى ما شئت من الحديقة فما بها ما يستحق أن يضن به المرء » فانحنت إلىّ وأنا قاعد على الرمل ووضعت راحتيها على ركبتيها وأكبّت بوجهها على وجهى وحدّقت فى عينىّ وقالت

(١) شركة الماء تحظر هذا .

بلهجة العاتب المحاسب « كيف لم تكن تعرفنى ؟ ألستُ أحييك كلما دخلت ورأيتك جالسًا فى ذلك الركن المظلم تحت الكرمة ؟ » فتناولت وجهها بين كفىّ وجذبته إلىّ فى رفق وقبلتها إذ لم يكن ثمة بد من ذلك ، وقلت « لا تغضبى يا فتاتى . وإذا كنت تريدين ثمر الحناء فاجنيه كله ، أو العنب فعناقيده لك ، ولكن خبرينى من دلك على مكانى ؟ » ونهضتُ . فعادت إلى التحدر وقالت « من دلنى ؟ : يا له من سؤال ! كأن الدنيا كلها لا تعرف ! ولقد وجدت بابك الليلة موصدًا فعلمت أنك خرجت إلى هنا فجئت أبحث عنك لتفتحه لى فإنى أستحيى أن أقرعه » قلت : « أحسنتِ ، فتعالى إلى هذه الصخرة » قالت : « لماذا ؟ » قلت : « لتعدّى لى النجوم ! » قالت : « أوَ هذا ممكن ؟ إنها كثيرة جدًا جدًا ! » قلت : « نعم ، ولكنك كلما عددت نجمًا وأشرت إليه بأصبعك اختفى واستسر حتى لا يبقى فى السماء ولا الأرض إلاَّ عيناك ! » .

قالت : « أصحيح هذا ؟ » وجعلت تثب وتصفق حتى لخلتها إحدى بنات الليل . ومضينا إلى الصخرة ، وجلست وأجلستها على ركبتى وطوقتها بذراعى وانطلقت هى تعد النجوم وأنا ألثم فاها كلما عدَّت واحدًا ، وهى فرحة بلثماتى ، تردها مضاعفة حارة وتهز رأسها وتنفض شعرها ثم تلقى بنفسها على ذراعى كرة أخرى وتستأنف العد ، ووجهها إلى السماء ، وشعرها المرسل متدل إلى الأرض . ولبثنا كذلك لا أدرى كم ! ولكن الذى أدريه أن سنى حسنها طرد خفافيش خواطرى التى كانت تمرح فى ظلام رأسى !

(٣)

الغريرة

مـرت عشاءً – بىَ – فتانــــة ... يا حسنها لو أن حسنًا يدومْ
والليـــل ســـاجٍ شاحب بدره ... كأنما أضنــــاه طــول الوجوم
فقلت : يا غـــادة أذكرتنى ... أحــلامَ عيشٍ نسختها الهمـــوم
أمثل هذا الحسن لمـَّـا يزل ... فى عالم الشر القديم العميم ؟
ألــم يزل (كوبيد) ذا صــولة ... يرمى فيدمى كل قلب سليم ؟
قالت : ومن كوبيد هذا الذى ... تذكره مقترنًـــا بالكلـــوم ؟
فقلت : هذا ولــد مولــع ... بصيد أكباد الـــورى كالغريـم !
فتمتمت عـــائذة باسمــــــه ... من كل شـيطان خبيث رجـيم

* * *

يا بدر هل أبصرتهـــا موهنًا ... بين ذراعىّ تعـد النجـــوم ؟
أم كنتَ فى ليلـــة ذاك النعـيم ... فى شغل عنا بكحل الغيـــوم ؟

يا بدر ما أفشاك رغم الوجوم !

فى جوارها

ولثمتـــــه ... !
لـــم أكلمه ، ولكـــن نظرتى
ســـاءلته : أيـــــن أمـــك ؟
أيـــــن أمـــك ؟

* * *

وهو يهذى لـــى ، على عـادته
مـذ تولت ، كـــل يـــوم
كـــل يـــوم

* * *

فانثنى يسـط من وجهى الغضون،
ولعمرى كيف ذاك ؟
كيف ذاك ؟

* * *

قلت، لما مسحت وجهى يداه ،
« أترى تملك حيلة ؟
أى حيلة ؟ »

قال : «ما تعنى بذا يا أبتاه ؟»
قلت : « لا شىء أردته »
ولثمته .. !

* * *

هاتف من جانب القبر

جمـــالك[1] – لا تأسف عليّ ولا تأسى
فإنى ، تحت الأرض ، لا أحفل الحبسا
طوانى الـــردى عن ناظريك فجـــاءة
ومـا كان ظنى قـط أن أسكن الرمسا
أرانـــى الصـــبى شمسى بعيدًا مغيبها
فسرعان مـا ولّى النهار وما أمسى ! ؟
وكنت سرور العـــين والأنف والحشى
فأصبحت أوذى العـين والأنف والنفسا
ولا تتجشم لـــى الحفـــاظ ، فإننى ،
وقـد مت ، لا أوليك شـــكرًا ولا حـسا
وأدخـــل إليك الشمس من كلّ كوّة
فمـا يتملى العـيش من يحجب الشمسا
ستسليك عنى ، كلُّ زهـــراء ناهـــد
وإن بقيت ذكـرای تهمس بـــى همسا
فمـــا أنت بالباكـــى عليّ ، وإنمـــا ،
على فقد ما قـد كنت طبت بـــه نفسًا

* * *

(١) جمالك أى صبرك .

رفيق

يلازمني في جيئتي وذهابي
رفيق من الماضي أليف شحوب
أقول له « قدمت يا صاح فاحتجب »
فيفتر عما « كان » ثغر حبيب
وما بجميل منه تنغيص حاضري
بأن عليه منه عين رقيب
وقد كان قدمًا « حاضرًا » لا يمضه
شريك ، ولا يشكو حساب حسيب

* * *

ما الفرق

توقلتُ طودًا لم تكن[1] تتوقل
وأصعدت فيه جاهدًا أتنقل
خلاءً ، قواءً ، جنّه عبقرية
تعاوى به طورًا ، وطورًا تجلجل
من اللاء كم صالت وجالت بمثله
عمالقة الدنيا الذين تحملوا[2]

---

(١) لم تكن « هي » .
(٢) تحملوا ، أي ارتحلوا . وفي الأساطير أن العمالقة كانوا يتقاذفون بالجبال .

ولــــم تــك تهــواه ، فكنت أروده
وحــيدًا ، ولا أشكـــو لا أتململ
فكيف غـــدا من بعدهـــا جـد موحش
ولـــم تك تغشاه معى حين أفعل ؟

* * *

فى الفسطاط

أيــا بلدة الفسطــاط مــا أنت بلدة
ولكنمــا ذكـــرى لمؤتنف الخفــض
طــواك قضـــاء الله فى الأرض حقبة
وأنشرك الإنســان نقضًا إلى نقــض
خطوط وأنقاض ، كمــا جاهد الفتى
ليحيى ذكرى ، وهـى تمعن فى الغمض
خرائب من حولى ، وفى النفس مثلها ،
وأهول منهـــا ، ويل بعضى من بعضى
وكـم خلت نفسى بعض أدراس نؤيها
فأقــررت حــتى كـان يفزعنى نبضى
قضيت بها ليـــلاً طويـــلاً قصيره
وهل تقصر الليـلات من شدة المخض ؟
فوا أســفا . لــو ههنا كنت لأنثنى
قصيرًا على اللـــيل ذو الطول والعرض

لأوحشتنى لمـــا خلت منك رقعتى ،
ولم تؤنسى ذا وحشة فى حشى الأرض!
أ آسفة للموت ؟ أم أنت يـــا تـــرى
أراحك مـــنى الله ذو البسط والقبض ؟

* * *

الأسى

بكيتك بالدمـــع السخين ، ولم أزل
بقلـــبى ، وإن جـفـت مـآقىّ ، باكيًا
ولست أرى الدنيا التى كنت روحها
وريحانهـــا تأســـى عليـــك ولا ليا
وليس الأسى أن تذرف العين عـــبرة
يبرد مهواهـــا القلـــوب الصواليـــا
ولكنـــه عطف ، ولهف ، وحسرة ،
وتقليعك الأحـــلام حمـــرًا داميًا

* * *

صورتها

تأملتهـــا حـــتى تحرك ســـاكن
من الثغـــــر والعينين والـرأس والصدر
أيصبح هذا الحسن قبحًا؟ وجيفة؟
بلى ! ويسد الأنف من نتنه المـــزرى !

ويمسى صديدًا كل ما كان من قوى

وســـاء شـــباب مستحير ومـــن ســـحر

فيا بؤس للبوغاء يعفـــــر وجههـــا

ويكحل جفنيهـــــا ويلصـــق بالنحـــــر !

وللدود ، يقتات ، الليـالى ، بحسنها

ويتركها كومًا من الأعظـم النخـــــر !

* * *

شؤم الخيال

أرى رونق الحسناء فى ميعة الصبى

فيوضع بى شـــــؤم الخيـــــال ويُعنق[1]

ويشهدنيهـــا فى الـــتراب مرمّةً

وقد عالهـــا غـــول الحمـــــام المـــوفق

(١) الإيضاع والاعناق ضربان من السرعة . والمعنى أنى كلما رأيت حسناء فى ريعان شبابها تخيلتها ميتة مدرجة فى قبرها وقد صارت جيفة .

النجاح

قال أحد كتاب الروس – ولست أذكر اسمه لأرويه – كان بمدينة كذا رجل ضعيف العقل . وكان الناس لا يمسكون عن الخوض فى أمره والتحدث بتخلف ذهنه وغلظ عقله فكرّبهُ ذلك وساءه وأحب أن يغير رأى الناس فيه ، فلم يزل يعمل فكره حتى هداه طول التفكير والتدبر إلى ما هو خليق أن يبلغه أمنيته ويحقق له غايته ورغبته ، وذلك أنه صار كلما لقى واحدًا من معارفه وإخوانه يستسخف رأيه ويستجهله . فإذا ذكر أمامه كتابًا ورأى أنه يستجيده قال له – هذا كتاب سخيف ليس فيه معنى ولا وراءه محصول وإنك إذ تستحسنه وتستجيده لتدل برأيك فيه على تخلفك عن عصرك وتأخرك عنه .

وإذا امتدح أحد صورة على مسمع منه انبرى له بالتنقص والاغتماض قائلاً – ليس فى هذه الصورة شيء يستجاد وإنك بمدحك إياها وإكبارك لها لتثبت أنك متأخر عن عصرك – وهكذا ظل صاحبنا يستهجن كل ما يستحسنه الناس ويتهمهم بضعف العقل ويرميهم بالقصور والتخلف عن الزمن وبجهل ما عفىّ عليه من الآراء وأجدّ من الحقائق ، فيمضون عنه وهم خجلون من سقاطهم وعثراتهم حتى أكبروا عقله وان أفزعتهم وقاحته وراعتهم جرأته .

وبلغ من نجاح صاحبنا فى ما قصد إليه أن صاحب جريدة استكتبه وسأله أن يوافيه بآرائه فى الأدب والفنون والاجتماع ! فلم يحد عن خطته التى رسمها لنفسه وهى تنقص كل عمل ورمى مستجيديه بالتخلف وعدم الاطلاع على أحدث الآراء التى أنتجها العصر ! فصار قوة لا يملك إهمالها

الكتاب والمؤلفون والمصورون وسائر الفنيين . وقد أُراد واضع القصة أن يدل القارئ بها على سر من أسرار النجاح . ولم نرد نحن بإيرادها أن نذهب إلى أن الدعوى والتبجح لازمان فى الحياة وأنهما وسيلة النجاح ولا وسيلة سواهما ، ولكنا أردنا أن نقول إن الحياء شىء حسن له فضله ومزيته ، ولكنه ، على ذلك ، ثوب يحسن أن يخلعه المرء إذا شاء أن يفوز بحقه ويظفر بما هو أهل له . فقد تكون أقوى الناس استعدادًا وأكثرهم مواهب وملكات وأقدرهم على الاضطلاع بالاعباء والقيام بخطيرات الأمور وجلائل المساعى ، ويحرمك الحياء أن تجنى ثمرة تعبك وزهرة غرسك . وليس فى الخجل معنى فى الحياة أو نتيجة إلا أن الناس يملأون بطونهم وأنت جائع ، ويدخلون وأنت واقف بالباب ، ويتقدمونك وأنت متردد !

واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التى تستحقها ، لم يرفعك الناس إليها ، بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضًا ويزحزحونك إلى ما هو وراءها لأن التزاحم على طيبات الحياة شديد ، والجهاد والتنازع لا يدعان للعدل والانصاف مجالاً للعمل . فلا تصدق من يشيرون عليك بالترفق والوداعة وينصحون لك بالاستحياء ، فإنه لا حياء فى الحق ولا خجل من السعى لإحراز ما تستحقه من الأنصباء ، وأحسبُ هؤلاء النصحاء أرادوا أن يستأثروا بالسبق فأشاروا عليك بالتقاعد ! ويستبدوا بالفوز فزينوا لك الزهد والقناعة ! ألست ترى إلى الذول كيف تعلن عن فضائلها ومحاسن صفاتها ومميزاتها وهى قد أوتيت كل الرذائل والمقابح والخسائس ؟ وكيف تدعى سمو العقل ونبل المقاصد وشرف المنازع وهى فائرة الصدور بالحقد والضغينة ؟ وكيف تتظاهر بالزهد والعفة عما فى يد الغير وهو شاغل شعاب مطامعها ومالئ جو آمالها ؟ وكيف تزعم أنها تفيض عطفًا على أمم العالم وحبا للبشر وإيثارًا لخيره ، وهى قد أكل قلبها الكره والاحتقار ؟

وكيف تقاوم كل حركة رقى وهى تباهى بأنها مولد الآراء الجديدة ؟ وكيف تفاخر بما تسنمته من تلاع الرقى وأنجاد الرفعة وهى تجر رجليها وراء أصغر الشعوب ؟ وكيف تتشدق بمبادئ الحق والعدل وهى تظلم الضعفاء وتسترقهم وتسلبهم حريتهم وتنتهك كل حرمة وتفجر فى كل عهد وتنقض كل وعد ؟ والناس يسمعون هذه الدعاوى الخلابة وتسحرهم فتنتها ويصدقونها ولا ينتبهون – ولو نبهتهم – إلى أن اليد لا تكترث لما يجرى به اللسان !! – وإذا كان هذا مبلغ التبجح بالباطل فماذا عسى ينبغى أن يكون مقدار الجرأة فى الحق ؟

لو كان فى هذه الدنيا موازين لا تغل شعيرة تزن أقدار الناس والأمم وتقسم الحقوق بالعدل والقسطاس لما عادت بنا حاجة إلى النصح بالمغامرة واطّراح الحياء والخجل ونفض غبار التقاعد والخمول ، ولكن ما تستحقه رهنٌ بتقديرك وحدك دون سواك . فمن أفحش الحمق أن تدع أمرك موكولاً لانصاف خصمك – نقول خصمك لأن كل الناس وكل الأمم خصوم على الحقيقة – وما من أحد إلا وفوزك بشىء أو سبقك إليه ، يحرمه إياه فهو مضطر إلى مغالطتك فيه وصرفك عنه ومغالبتك بالقوة عليه إذا لم تجدِ معك الحيلة ، وعلى قدر سعى المرء وما يبذله من الجهود يكون استحقاقه ، لأن الحياة هى الحركة والجهاد لا النوم والتواكل ، وما أحق من يقعد ويفتح فمه أن يملأ الزمان ترابًا !!